العدد الخامس والعشرون
2008

مجلة كلية

الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة تصدر سنويا

1376 من وفاة الرسول ﷺ الموافق لعام 2008 مسيحي

- دقة التعبير في نهايات الآيات القرآنية
- الإيقاع النثري (صوره وخصائصه)
- صورة بلنسية في الموروث الأندلسي
- دور الإسلام في التواصل بين مناطق الساحل والصحراء الإفريقية

صورة بلنسية (*) في الموروث الأندلسي

د. رمضان سعد القماطي
جامعة الفاتح - كلية الآداب

في كل عصر تدور تقلبات الزمان، وتطفو على السطح حوادث تظل حيناً من الزَّمن تتناقلها الركبان، وتلهج بها ألسنة، وتشنَّف لها آذان، وإذا دار الزمان دورته طواها النسيان، وصارت من عشاق حكايات «كان يا ما كان» وما ينال أهل كل دهر من تقلبات الأحوال، يطال أيضاً المدائن، فتصبح بعد حين أثراً

(*) بلنسية، مدينة مشهورة بالأندلس، وهي شرق مدينة تدمير، وشرق مدينة قرطبة، وهي بريّة وبحرية، ذات أشجار وأنهار، كان الأندلسيون يدعونها بمُطيَّب الأندلس، والمطيَّب عندهم: حزمة يعملونها من أنواع الرياحين ويجعلون فيها النرجس والآس وغير ذلك من =

بعد عين، وهذا القدر الإلهي يسري على العديد من مدائن الإسلام في الأندلس، والذي يقلب المصادر الأندلسية من أسفار التاريخ، أو دواوين المنظوم والمنثور يجد ألواناً وأعاجيب من حضارات سادت ثم بادت، فهذه قرطبة دار العلوم، وتلك إشبيلية دار الفنون، وخاتمة ذلك كله غرناطة دار الجنائن والقصور، ومن خلال قراءات متعددة في المصادر الأندلسية يتضح ترداد مدينة بلنسية في عدد لا يحصى من مصادر الموروث الثقافي الأندلسي، ففي كتاب الذخيرة لابن بسام الشنتريني ورد ذكر بلنسية في صفحات متفرقة، وبخاصة القسم الثالث، المجلد الأول، وكذلك الحال في كتاب نفح الطيب للمقري التلمساني، ونظراً إلى أهمية الدور الحضاري، والثقافي، والإنساني الذي تميزت به بلنسة في التاريخ الأندلسي؛ فإننا نجد اسمها قد تناثر في عشرات الصفحات من كتاب عصر المرابطين والموحّدين في المغرب والأندلس لمؤلفه محمد عبد الله عنان.

وهذا الكم الهائل من المعلومات التي تخصُّ هذه المدينة، إلى جانب كونها من أهم المدن التي علا شأنها عبر مراحل تاريخ الإسلام والمسلمين في الأندلس حتى صارت من أهم مدائن الثغر الأعلى الأندلسي[1].

إن هذا الكم الوفير، والفيض الغزير من المعلومات كان الدافع من

= أنواع المشمومات، وسموا بلنسية بهذا الاسم لكثرة أشجارها وطيب ريحها، ينظر ترجمتها في: معجم البلدان: ياقوت الحموي، دار صادر، بيروت، ط1977: 1/ 490، ـ الروض المعطار في خبر الأقطار، محمد عبد المنعم الحميري، تحقيق: إحسان عباس «مؤسسة ناصر للثقافة، ط2، بدون تاريخ: 110، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، حسين مؤنس، مكتبة مدبولي القاهرة، ط2، 1986م: 66، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، عبد الواحد المراكشي، ضبط وتصحيح: محمد سعيد العريان، ومحمد العربي العلمي، دار الكتاب الدار البيضاء، ط7: 1978: 517.

(1) الثغر الأعلى، يضم هذا الثغر العديد من المدن الأندلسية من أهمها سرقسطة، وبلنسية، وأبرة، وبربشتر. ينظر: الثغر الأعلى الأندلسي في عصر المرابطين، حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1992: 10.

وراء كتابة هذا البحث، وإفراد هذه المدينة بدراسة مستقلّة لكي يتمكن قارئ الموروث الحضاري الأندلسي من الاطلاع على تراث المسلمين في تلك الديار في خلال معرفة أحوال مدائنهم التي تختزن إرثاً حضارياً تفنَّن الأندلسيون في إبداعه، يحدوهم في ذلك عشقهم لجمال بلادهم كما يقول ابن خفاجة.

يـا أهـل أنـدلـس لله دركـم ... مـاء وظـل وأشـجـار وأنـهـار
مـا جنّة الـخـلـد إلاّ فـي ديـاركـم ... وهـذه كـنـت لـو خـيـرت أخـتـار
لا تتقوا بعدها أن تدخلوا سقراً ... فليس تُدْخَلُ بعد الجنة النار[2]

وفي قراءة تاريخ بلنسية الحضاري والثقافي نوع من أنواع الوقوف على الآثار التي تحمل طابعاً عاطفياً له العديد من الدلالات من أبرزها قراءة أمجاد الماضين بدافع العظة والاعتبار، وكذلك «استراحة إلى الماضي من الحاضر المجهول»[3] وربما هذا المقام يحسن الاستشهاد بقول أحمد شوقي:

وإذا فـاتـك الـتـفـات إلـى الـمـا ... ضي فقد غاب عنك وجه التأسّي[4]

وسبب اختيار بلنسية يعود إلى كونها من أكثر مدن الساحل الشرقي الأندلسي ازدهاراً في العصور الإسلامية، وكانت تسمى مدينة التراب[5]، وهي لا تقل منزلة عن باقي حواضر الأندلس، يصفها المقري التلمساني بقوله: «وأمَّا بلنسية فإنها لكثرة بساتينها تعرف بِمُطَيَّب الأندلس، ورصافتها[6] من أحسن

(2) ديوان ابن خفاجة، تحقيق السيد مصطفى غازي، منشأة المعارف بالاسكندرية: 364.

(3) الأدب المقارن، محمد غنيمي هلال، دار العودة، ودار الثقافة، بيروت ط5: 197.

(4) ديوان الشوقيات، توثيق وتبويب وشرح، أحمد محمد الحوفي، نهضة مصر للطباعة والنشر الفجالة، القاهرة. ج1: 213.

(5) ينظر: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقري التلمساني، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت 1988: 166، ومعجم البلدان: 1/ 490.

(6) الرصافة، موضع ببغداد، ينظر: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، أبو عبيد البكري الأندلسي، تحقيق مصطفى السَّقا، عالم الكتب، بيروت، ط3، 1983: 654.

متفرجات الأرض. . . ، ولم تخل من علماء وشعراء، ولا فرسان يكابدون مصاقبة[7] الأعداء، ويتجرَّعون فيها النعماء ممزوجة بالضرَّاء، وأهلها أصلح الناس مذهباً، وأمتنهم ديناً، وأحسنهم صحبة وأرفقهم بالغريب»[8] ولا أعتقد أن هذه الأوصاف التي أوردها المقري ضرب من المبالغات أو التزاويق اللفظية، بل نقرأ في العديد من المصادر ما يؤكد هذه المعاني، ولعل في استنطاق المدينة دون غيرها من مدائن الأندلس ما يشير إلى منزلتها في نفوس العالمين بأخبارها، الواقفين على عمائرها وبنيانها، وفي هذا يقول المقري مستحضراً صورتها وهي تتباهى بنفسها « . . . فلي المحاسن الشامخة الأعلام، والجنات التي تلقي إليها الآفاق يد الاستسلام، وبرصافتي وجسري أعارض مدينة السلام[9]، فأجمعوا على الانقياد لي والسلام، وإلاَّ فَعَضُّوا بناناً، وأقرعوا أسناناً[10] كما وردت هذه الأوصاف في مقامة صنعها الفتح بن خاقان[11] وبطلها المتخيل هو علي بن هشام الذي قدم من أرض الشام إلى بلاد الأندلس راغباً في التعرف على أدبائها، وعندما يصل بطل المقامة إلى بلنسية يرى أرضاً عليلة الأرواح[12]، ظليلة الأدواح[13]، وفي مقطع من رسالة طويلة بعث بها أبو المطرف بن

(7) المصاقبة: الملاصقة والمجاورة، وصاقب: دنا وقرب، لسان العرب لابن منظور، إعداد وتصنيف يوسف خياط، دار لسان العرب بيروت، 2/ 455.

(8) نفح الطيب: 3/ 221.

(9) مدينة السلام، اسم أطلقه المنصور العباسي على مدينة بغداد، ويقال سميت بهذا الاسم لأن دجلة كان يقال لها وادي السلام، فقيل لبغداد مدينة السلام، ينظر: معجم البلدان: 1/ 456، والروض المعطار: 110.

(10) نفخ الطيب: 1/ 174.

(11) هو الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان، مات مقتولاً بمراكش 528هـ، ينظر ترجمته في نفح الطيب المجلد الأول والثاني والثالث صفحات متفرقة، والمغرب: 1/ 254، والأعلام: 5/ 332. وكتب محمد علي شوابكة دراسة مفصلة حول حياة الشاعر في مقدمة كتاب المطمح.

(12) الأرواح مفردها ريح، وهو الهواء إذا تحرك، المعجم الوسيط: 1/ 380.

(13) ينظر مطمح الأنفس، لابن خاقان، دراسة وتحقيق محمد علي شوابكة، دار عمار مؤسسة الرسالة الأردن، ط الأولى 1983م: 82.

عميرة[14] إلى ابن الأبار[15] يعدد مواضع الحسن والجمال في مدينة بلنسية حيث قال: « فأين تلك الخمائل ونضرتها، والجداول، وخضرتها، والأندية، وأَرِجَها[16]، والأودية ومنعرجها، والنواسم[17] وهبوب مبتلها، والأصائل وشحوب معتلها، دار ضاحكت الشمس بحرها وبحيرتها، وأزهار ترى من أدمع الطَّلِّ في أعينها تردُّدها وحيرتها»[18].

وهذه المعالم النيرات، والظلال الوارفات، والأزاهير المتفتحات التي تميز بلنسية عن غيرها من مدائن الأندلس هي التي دفعت بأحد المستشرقين المعجبين بأشعار الأندلسيين إلى القول: «نعتقد أيضاً أن شعرهم نافس في شذاه ورقة طلاوته أريج بساتين بلنسية الظليلة الواسعة[19] وهذا شاعر آخر من شعراء الأندلس شهدت له مصادر الأدب بأنّه متفنّن في بيانه، جمع بين ضروب الموزون والمنثور حتى صار زعيم شعراء الأندلس بلا مراء[20] يبدو أنه زار

(14) هو أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي، ينظر ترجمته في نفح الطيب: 1/ 305 والمغرب: 2/ 363، وللدكتور محمد بن شريفة رسالة جامعية مطبوعة من منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي بالمغرب، بعنوان: أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي، حياته وشعره، وقد تناول فيها تفاصيل حياة أبي المطرف.

(15) هو أبو عبد الله محمد بن الأبار القضاعي البلنسي، ولد ببلنسية 595هـ، وتوفي بتونس 635هـ، ينظر ترجمته في نفح الطيب الأجزاء الأول والثاني والثالث صفحات متفرقة، وله ديوان شعر مطبوع تحقيق عبد السلام الهراس، وقدم للديوان بترجمة وافية عن حياة الشاعر.

(16) الأرج: الطيب، المعجم الوسيط: 1/ 13.

(17) النواسم: فيما اطّلعت عليه لم تُشِرْ معاجم اللغة إلى الكلمة، ويفهم من السياق أنّها بمعنى النسيم، وهي الريح اللينة التي لا تحرك شجراً، وقد وردت بهذا المعنى في العديد من قصائد الشعر الأندلسي، ومن ذلك قول ابن زمرك الشاعر الغرناطي:

تبيت لهم كفُّ الثريا معيذة ويصبح معتل النواسم راقيا

ينظر البيت في كتاب مع شعراء الأندلس والمتنبي، غرسيه غومث، تعريب الطاهر أحمد مكي، دار المعارف بمصر ط5، 1992م: 226.

(18) نفح الطيب: 4/ 493.

(19) الشعر العربي في أسبانيا وصقلية، فون شاك، ترجمة الطاهر أحمد مكي، دار المعارف بمصر، ط1، 1991م: 93.

(20) ينظر ديوان ابن زيدون ورسائله، شرح وتحقيق علي عبد العظيم، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة: 9.

بلنسية وله فيها ذكريات جميلة بين خمائلها الظليلة، وأنسامها العليلة مع صديقه أبي بكر بن عبد الله بن عبد العزيز[21]، وعند عودته إلى إشبيلية كتب رسالة شعرية يقول فيها:

راحت فراح بها السَّقيم ... ريحٌ مُعَطّرة النسيم
مقبولة هبَّت قَبُو ... لاً فهي تعبق في الشّميم
أفضيض مسك أم بلن ... سية لريَّاها نميم؟
بلد حبيب أفقه ... لفتى يَحُلُّ به كريم[22]

فهذه النسائم وأرواح الصَّبَا التي تعبق بالشميم جعلت بلنسية بلد محبب لكل فتى كريم يحل بين جنباتها، وقد حظي ابن زيدون بهذه الزيارة فخلّد ذكراها في أبيات لم يكن متكلفاً في اختيار عباراتها لأنها تعبِّر عن تجربة واقعية، وهذا شاعر آخر لا يذهب بعيداً عن المعاني التي أوردها ابن زيدون في أبياته السابقة، إلاّ أنّه لا يكاد يفرق بين أفاعيل فتيت مسك وعطر بلنسية الفواح، أو بين تذكر محاسن أيامها ولياليها، فكلاهما يعبثان برؤوس المتنسمين والذاكرين، يقول أبو عبد الله الرصافي[23]:

خليليَّ ما للبلد قد عبقت نشرا ... وما لرؤوس الركب قد رَجَحَتْ سُكْرا
هل المسك مفتوقاً بمدرجة الصَّبَا ... أم القوم أجروا من بلنسية ذكرا[24]

وهذا الأديب أبو زيد بن مقانا الأشبوني[25] يتحسّر على خروجه من بلنسية لأنه لم يكن راغباً في ذلك، ولكن المقادير تجري في أعنتها، ومما لا

(21) هو أبو بكر بن عبد الله بن عبد العزيز، ينظر ترجمته في الذخيرة: 3 ـ 1 ـ 40، ونفح الطيب: 3 صفحات متفرقة.

(22) ديوان ابن زيدون ورسائله: 201.

(23) هو أبو عبد الله محمد بن غالب الرصافي البلنسي، يلقب بابن رومي الأندلس، توفى بمالقة سنة 572هو ينظر: المعجب: 316، والمغرب: 2/ 342.

(24) معجم البلدان: 1/ 490.

(25) هو أبو زيد عبد الرحمن بن مُقانا الأشبوني القيبذاقي شاعر مشهور من غرب الأندلس، ينظر الذخيرة: 2/ 2/ 786، والمغرب: 1/ 413.

شك فيه أن ذكريات بلنسية الجميلة هي التي جعلت الشاعر نادماً على خروجه منها حيث قال:

إن كان ذنبي خروجي من بلنسية فما كفرت ولا بدَّلت تبديلا
دع المقادير تجري في أعنتها ليقضي الله أمراً كان مفعولا[26]

ويبدو أن الشاعر كان محقاً فيما ذهب إليه، لأن العديد من الشعراء والكتاب أجمعوا على اكتمال المحاسن في هذه المدينة، ومن يقرأ أوصاف مؤلف كتاب الروض المعطار لا بد أن يغالبه الحنين إلى تلك الديار، يقول عبد المنعم الحميري: «ولأهلها حسن زي، وكرم طباع، والغالب عليهم طيب النفوس، والميل إلى الراحات، وهي في أكثر الأمور راخية الأسعار كثيرة الفواكه والثمار، جامعة لخيرات البرّ والبحر»[27] وفيما قلبت من مصادر أندلسية لم أعثر على لوحة مرسومة لمدينة من مدائن الأندلس كالتي نطق بها ابن الزقاق[28] وهو يتقلب في رياض بلنسية حيث الجنان العالية، والقطوف الدانية، والعيون الجارية، وفيها يقول ابن الزقاق البلنسي:

بلنسية جنّة عالية ظلال القطوف بها دانية
عبوق الرحيق مع السلسبيـ ـل وعين الحياة بها جارية[29]

وهذا شاعر آخر يتصورها فردوس الدنيا لم تنل منها المكاره حيث قال:

هي الفردوس في الدنيا جمالا لساكنها وكارهها البعوض[30]

وفي جميع مراحل التاريخ الأندلسي لعبت بلنسية دوراً بارزاً في حالتي السلم والحرب، وازدادت أهميتها في العهد المرابطي وما بعده، حيث احتلت

(26) معجم البلدان: 1/ 490.
(27) الروض المعطار: 97.
(28) ابن الزقاق هو علي بن عطية، ابن أخت الشاعر الأندلسي ابن خفاجة، ينظر ترجمته في المطرب: 101، والمغرب: 2/ 323، ونفح الطيب: 3/ 289.
(29) معجم البلدان: 1/ 490.
(30) نفح الطيب: 1/ 179.

مكانة خاصة في الأمور السياسية والعسكرية كما «كانت بلنسية تحتل في شرق الأندلس المكانة نفسها التي تحتلها قرطبة في الوسط، وإشبيلية في الغرب باعتبارها قاعدة لسلطان المرابطين، ومركزهم الدفاعي في هذا القطاع من الأندلس[31] كما أنها تمثل ولاية من خمس ولايات أندلسية في العهد المرابطي[32]، ومن أبرز ولاتها مروان بن عبد العزيز[33] الذي استهوته محاسنها فقال في تشخيصها بعد أن لاحت إلى ناظريه وكأنها حسناء لبست قطائف[34] السندس الأخضر[35]، وهو بذلك يعبّر عن إخضرار جنائن المدينة التي حفَّت بها من كل جانب فقال:

كـأنَّ بـلـنـسـيـة كـاعـب ... ومـلـبـسـهـا الـسـنـدس الأخـضـر

إذا جـئـتـهـا سـتـرت نـفـسـهـا ... بـأكـمـامـهـا فـهـي لا تـظـهـر[36]

وإلى جانب كونها من أهمِّ الثغور الأندلسية في شرق الأندلس المواجهة لطوائف الروم، فهي دار حوت عدداً من العلماء والشعراء الذين تميزوا بالنبوغ في شتى المعارف والعلوم، وأبدعوا في فنون المنظوم والمنثور، وتقول المصادر: إنَّه قتل من هؤلاء الجمُّ الغفير في معركة «أنيشه»[37] يتقدمهم كبير علماء الأندلس سليمان بن موسى الكلاعي[38]، ومن أبرز شعرائها ابن الأبار،

(31) عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، محمد عبد الله عنان، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة، ط1، 1964م: 1/ 354.

(32) ينظر المرجع السابق: 1/ 415.

(33) مروان بن عبد العزيز، تولى القضاء بمدينة بلنسية عام 538هـ، ثم تولى إمارة المدينة بعد ذلك، وهو من الشعراء البارزين، توفي بمراكش سنة 578هـ، ينظر: نفح الطيب: 4/ 456، وعصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس: 1/ 354 ـ 446.

(34) قطائف: مفردها قطيفة وهي نسيج من الحرير أو القطن، المعجم الوسيط: 2/ 747.

(35) السندس: ضرب من رقيق الديباج، المعجم الوسيط: 1/ 454.

(36) عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس: 1/ 446.

(37) هي موضع على مقربة من بلنسية وفيه كانت الوقيعة بين المسلمين من أهل بلنسية وبين النصارى سنة 634هـ، الروض المعطار: 41.

(38) هو سليمان بن موسى بن سالم الحميري الكلاعي شهيد معركة أنيشة سنة 634هـ، =

وأبو المطرف بن عميرة، وأبو عبد الله بن الجنَّان[39]، ومنهم أيضاً سعد الخير الأنصاري البلنسي[40]، فالمدينة «أنجبت كثيراً من العلماء والشعراء، والشخصيات»[41].

بلنسية في ذمّة التاريخ

ودوام الحال من المحال، كما يقولون، هكذا يبدو أن أحوال العمائر والبلدان كأعمار بني الإنسان، محكوم عليها بالفناء، وبالدَّثار بعد الحسن والبهاء، وبخاصة إذا كثر فيها النعيم، وتردد بين جنباتها كل صوت رخيم تطريباً لا ترغيباً في حبِّ الاستقواء على الأعداء، وعندما هبَّت على الأندلس رياح التبديل والتغيير، وأصبحت مياهها آسنة بعد أن كانت نميراً حَلَّ ببلنسية ما حَلَّ من خراب وتدمير، وتناوبت عليها مصائب الدهور، وأصبح الأجناد على عتباتها بين كرٍّ وفرٍّ، وتجاوب الكتاب والشعراء مع تلك الأحداث، حيث انبرى العديد منهم إلى إعادة رسم صورة بلنسية في أسلوب لا يخلو من عبارات التحسُّر والتفجُّع، ومن ذلك قول ابن الأبار:

فأين عيشٌ جنيناه بها خضراً ... وأين غصنٌ جنيناه بها سَلِسا
مَحَا محاسنها طاغٍ أتيح لها ... ما نام هضمها حيناً ولا نعماً[42]

كما تلاشت تلك الصورة التي رسمها ابن خفاجة لمدينة بلنسية عندما

= قال عنه صاحب النفح: «ولم يزلْ، رحمه الله تعالى، متقدماً أمام الصفوف زاحفاً إلى الكفار مقبلاً على العدو، ينادي بالمنهزمين «أعن الجنَّة تفرُّون؟» ينظر ترجمته في نفح الطيب: 4/ 474، والمغرب: 2/ 316.

(39) أبو عبد الله بن الجنَّان، ينظر ترجمته في الإحاطة 2/ 256 ـ 264، والذيل والتكملة: 4/ 108، ونفح الطيب: 7/ 415.

(40) هو سعد الخير بن محمد بن سهل سعد أبو الحسن الأنصاري البلنسي، فقيه صالح محدِّث، سافر الكثير، وركب البحر حتى وصل إلى الصين وانتسب لذلك صينياً، وعاد إلى بغداد، وأقام به حتى مات في محرم 541هـ، ينظر معجم البلدان: 1/ 491.

(41) ديوان ابن الأبار، قراءة وتعليق عبد السلام الهراس، الدار التونسية للنشر 1985م: 9.

(42) المصدر نفسه: 397.

كانت مدائن الأندلس كلها تتباهى بحسن مبانيها، وطيب مغانيها، وصارت جنَّةً فوق الأرض كما تصورها حيث قال: «ما جنَّة الخلد إلاّ في دياركم»[43].

وفي الصفحة المقابلة لهذه الجنان خراب ودمار، وعيث ونار، يقول ابن خفاجة يصف أحوال بلنسية بعد أن حَرَّقها النصارى:

عـائـث بـسـاحـتـك الـعـدى يـا دار ... ومـحـا مـحـاسـنـك الـبـلـى والـنـار
وإذا تـردد فـي جـنـابـك نـاظـر ... طـال اعـتـبـار فـيـك واسـتـعـبـار
أرض تقاطفت الخطوب بأهلها ... وتـمـخـضـت بـخـرابـهـا الأقـدار
كتبت يد الحدثان في عرصاتها ... لا أنـت أنـت ولا الـديـار ديـار[44]

وبلنسية، كما برزت لنا صورتها الأولى، ذات حسن وبهاء، وموطن عزٍّ ورخاء، لا يسمع في مغانيها إلاَّ أغاريد ورقها وأغانيها، صارت بعد تبدل الأحوال موطناً لخشاش الأرض[45] تدب في أرجائها ونواحيها وتطرد النوم عن جفون ساكنيها، وفي ذلك يقول السميسر[46]:

ضـاقـت بـلـنـسـيـة بـي ... وذاد عـنّـي غـمـوضـي[47]
رقـص الـبـراغـيـث فـيـهـا ... عـلـى غـنـاء الـبـعـوض[48]

وبالأمس كانت فردوس الدنيا لا نصب فيها ولا غَوْل[49] وقد قرأنا من قبل لابن مسعدة قوله:

هـي الـفـردوس في الـدنـيـا جـمـالا ... لـسـاكـنـهـا وكـارهـهـا الـبـعـوض[50]

---

(43) ديوان ابن خفاجة: 364.
(44) المصدر نفسه: 354.
(45) الخشاش بفتح الخاء وضمها حشرات الأرض، المعجم 1/ 235.
(46) هو أبو القاسم خلف بن فرج الألبيري المعروف بالسميسر، ينظر: الذخيرة: 1/ 2/ 882، والمغرب: 2/ 100.
(47) ذادَ: دفع وطرد، المعجم الوسيط: 1/ 317.
(48) الذخيرة: 4/ 1/ 227 ونفح الطيب: 3/ 330.
(49) الغول: التعب والمشقة، المعجم الوسيط: 2/ 667.
(50) نفح الطيب: 1/ 179.

والزمان كفيل بأن يمحو أثر كافة تلك القصور الزاهرات، والرياض الباسقات، فلا بساتين ظليلة، ولا ريح معطرة عليلة، تحيي السَّقيم، وتعبق بالشَّميم، ولا جداول طافحة، وخمائل نافحة، بل قلوب شاكية، وعيون باكية، وقريب من هذا المعنى يقول ابن الأبار متحسِّراً[51]:

إيه بلنسية وفي ذكراك ما يمري الشؤون دماءها لا ماءها[52]

وكثرة المحن، والنكوب التي أصابت بلنسية جعلت المقام فيها من الغلط، ولا بد لذلك من تأثير على نفوس زائريها الراغبين في الإقامة فيها، وهذا أبو المعالي الأشبيلي[53] ينشد أبياتاً بمسجد رحبة القاضي بمدينة بلنسية يتحسَّر فيها على أيام خروجه من إشبيلية حيث قال:

أنا في الغربة أبكي ما بكت عين غريب
لم أكن يوم خروجي من بلادي بمصيب
عجباً لي ولتركي وطناً فيه حبيبي[54]

وكأن ابن زيدون الذي نزل بها يوماً لم يكن بمصيب عندما قال عنها:

بلد حبيب أفقه لفتىً يحلُّ به كريم[55]

ولا تحلو الديار إلاّ بساكنيها، وأغاريد حمائمها، وأصوات مؤذنيها، وكيف يكون الحال إذا تبدَّد الشمل وانفرط العقد؟ ذلك ما عبَّر عنه ابن عميرة عندما دار الزمان دورته، وقلب لساكنيها ظهر المجنّ[56]، حيث قال: «وما لبث أن أُخْرِس من مسجدها لسان الأذان، وأخرج من مسجدها روح الإيمان...،

(51) ديوان ابن الأبار: 34.

(52) يمري: ينزل، المعجم الوسيط: 2/ 867، والشؤون: مجاري الدمع في العين، المعجم الوسيط، 1/ 469.

(53) أبو المعالي الأشبيلي هكذا ورد اسمه في نفح الطيب: 4/ 113، التكلمة: 196.

(54) نفح الطيب: 4/ 114.

(55) ديوان ابن زيدون ورسائله: 201.

(56) عاداهم بعد مودة هكذا يقال في المثل، المعجم الوسيط: 1/ 141.

وانعطفت النوائب مفردة ومركبة كما تعطف الفاء»[57]، وأصبحت مدينة بلنسية موطن المتناقضات كما يقول أحد الباحثين[58]، فاسمها يتردد على ألسنة الشعراء والكتاب، وهم بين محبٌ لها وشانئ، وقد يتردد هذا المعنى في بيت واحد من الشعر؛ كما عبر عن ذلك ابن الأبار في قوله مخاطباً بلنسية:

أحبُّ وأقْلَى مِنْك حَالاً وماضياً بمُوحِشةٍ مَوْتا بعهد الأوانس[59]

فالحب والقلى مجموعان في بيت واحد، وهذا ما يشير إلى أن عاطفة الشاعر تتنقل بين حالين في آن واحد، بين ماضٍ له ذكريات جميلة، وحاضر كله بؤس وشقاء، ولا يقدر على رسم هذه الصورة المتعددة الأبعاد إلاّ من كان مخزونه العاطفي تجاه تلك المواقف غائر في أعماق النفس[60].

ساعة الغروب

تقول المصادر: إنّه في يوم الجمعة السابع والعشرين من صفر 636 هجرية، التاسع والعشرين من أكتوبر 1283 ميلادية سقطت المدينة في أيدي النصارى سقوطاً نهائياً بعد أن حكمها المسلمون خمسة قرون وربع قرن، سطعت خلالها في شرق الأندلس وتزعمت قواعدها[61] وهذا السقوط المريع لحاضرة العلوم والآداب في شرق الأندلس لا بد أن يلهب المشاعر والعواطف ويترك أثراً لا تمحوه الأيام وتقلبات السنين، وشهود الأعيان الذين عاشوا أحداث الأندلس ورأوا المدائن كيف تسقط بلداً إثر بلد، هم وحدهم القادرون على رسم تلك الصورة القوية المؤثرة، وفي بعض المصادر نجد الشعراء

(57) نفح الطيب: 4/ 493.

(58) ينظر مجلة دراسات أندلسية، مقال بعنوان: القيمة الوثائقية لديوان ابن الأبار: العدد: 2 ص48.

(59) ديوان ابن الأبار: 400.

(60) في هذا الجانب أرى وجوب الإشارة إلى ما ذكرته فاطمة طحطح حيث أكدت على أن الجمع بين إحساسين متباينين في نصٍّ واحد لا يهدم القصيدة، كما يدعى بعض الدارسين، ولمزيد من الاطلاع ينظر كتاب الغربة والحنين في الشعر الأندلسي، منشورات كلية الآداب، الرباط: 359.

(61) ينظر: عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس: 2/ 451.

والأدباء قد تتبعوا مراحل السقوط النهائي فرسموا لوحة تراجيدية لذلك المشهد، ومن هذه الصورة ما أورده المستشرق الألماني فون شاك Von» «Schack الذي قال: «بينما بلنسية في أسوأ حالاتها صعد عربي، فيما يقال، على أبراج المدينة، وأنشد المرثية التالية:

بلنسية.. بلنسية يا موطني!

يا لشقائك المرعب

قريباً جداً سوف تسقطين

ومعجزة فحسب يمكن أن تنقذك

لقد خصَّ الله كورتك

يا للجمال الفائق والخير الوفير

وكل البهجة واللذة

. . . .

نعم، الله مالك كل شيء

قدر خرابك»[62]

وكما يتبيَّن فإنَّ ناظم هذا النص يعيش لحظة من لحظات القدر الرهيبة، فهو بين ماضٍ من الزمان تبرز فيه صورة المدينة وهم تنعم في حلل من الخير الوفير بمبانيها السامقة، وأبراجها العالية، وشرفاتها البيضاء، التي تسطع كنور الشمس، وبين حاضر تنهار فيه كل هذه المحاسن أمام زحف الذئاب المسعورة التي اجتاحت الوادي في أثواب من دخان كثيف يلف المدينة[63].

(62) الشعر العربي في أسبانيا وصقلية: 151.

(63) ينظر هذه المعاني وغيرها في نص المرثية كاملاً في كتاب الشعر العربي في إسبانيا وصقلية: 151 وما بعدها.

ويأتي بعد هذا المشهد تصوير آخر لا يقل عن الأول ترويعاً وتفجيعاً لأن الذي عبَّر عنه شاعر من أهل المدينة رأى الموت يزحف نحو بلنسية من كل جانب، وهي تغرق في لجَّةٍ من العبرات تذرفها نساء مكلومات وَطَفْلاَت[64] ناعمات، وأطفال حيارى، ورجال سكارى، وما هم بسكارى، وهذا الموقف المحشري المرعب هو الذي طوَّح بابن الأبار إلى الشمال الأفريقي طالباً النجدة من حاكم تونس أبي زكرياء الحفصي[65] حيث قال في مقدمة لإحدى القصائد الطوال:

نـادتـك أنـدلـس فـلـبِّ نـداهـا واجعل طواغيت الصليب فداءها[66]

والشاعر يدرك أن سقوط بلنسية ما هو إلاَّ مقدمة لسقوط باقي الممالك الأندلسية باعتبارها واسطة العقد، والسدَّ المنيع الذي يدفع البلاء القادم من كل صوب تجاه مدائن الأندلس، ثم يعود متحسِّراً على أيَّامها الخوالي التي تجعل مسيل دمع العين دماء لا ماء فقال:

إيـه بـلـنـسـيـة وفـي ذكـراك مـا يُمْرى الشؤون دماءها لا ماءها[67]

وتزداد عاطفة الشاعر توقداً فينظم قصيدة أخرى تبلغ درجة عالية من التعبير عن صرخة الاستنجاد والدعوة للجهاد؛ فيخاطب أمير تونس ثانية قائلاً:

أدرك بـخـيـلـك خـيـل الله أنـدلـسـا إن السبيل إلى منجاتها درسا[68]

وتعتبر سينية ابن الأبار من روائع الشعر الأندلسي المعبِّر عن توقد العواطف وحرقة الأكباد، وفيها العديد من الألفاظ التي تلهب المشاعر وتستفز

(64) طَفْلاَت مفردها طَفْلَة وهي الفتاة الناعمة، المعجم الوسيط: 2/ 560.

(65) أبو زكريا الحفصي، هو أبو زكريا يحيى ابن الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص، عميد ومنشئ الدولة الحفصية في تونس، ينظر: عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس: 2/ 446.

(66) ديوان ابن الأبار: 33.

(67) المصدر نفسه: 34.

(68) ينظر القصيدة كاملة، ديوان ابن الأبار: 34 وما بعدها.

القرائح، ومن ذلك قوله: الصراخ، والأرزاء، والعزاء، والضرَّاء، والبكاء، والفواجع، والمكاره، وغيرها من العبارات التي حاول الشاعر من خلالها تفريغ كل ما في جعبته من معاني التفجُّع والتوجُّع، وشحذ عزيمة من يستصرخه.

ومن الملاحظ أن ذكر بلنسية يأتي في مقدمة العديد من قصائد الاستنجاد، أو رثاء المدن والممالك الزائلة، وليس لذلك من تفسير سوى أن هذه المدينة تسبق مدائن الأندلس في الأهمية في جميع النواحي، وبخاصة إذا هبَّت على الأندلس طوارق الأحزان، وتعليل آخر ربما يدعونا إلى القول: إن ما أصاب بلنسية من كوارث يفوق ما أصاب باقي الممالك في ديار الغرب الإسلامي، فأصبحت نموذجاً لكل من رغب في الحديث عن مأساة الأندلس، ونشير هنا إلى أن مدينة بلنسية هي المدينة الوحيدة في الأندلس التي شهدت ساحاتها حرق اثنين من علماء المسلمين اللذين وقفا مدافعين عنها وهما أبو جعفر أحمد بن عبد المولى البلنسي[69] وابن الجحاف المعافري البلنسي[70].

وفي ذكر أخبار المدائن الزائلة تأتي بلنسية في المقدمة ومن ذلك قول ابن الأبار:

وفي بلنسية منها وقرطبة ... ما ينسف النفس أو ما ينزف النَّفَسَا
مدائن حَلَّها الإشراك مبتسماً ... جذلان وارتحل الإيمان مبتئسَا[71]

وقال أبو القاء الرُّندي[72] في نونيته المشهورة:

فاسأل بلنسية ما شأن مرسية ... وأين شاطبةُ أين جَيَّانُ
وأين قرطبة دار العلوم، فكم ... من عالم قد سَمَا فيها له شان

(69) ينظر خبره في نفح الطيب: 4/ 21، والتكملة: 24.
(70) ينظر خبره في نفح الطيب: 4/ 22، والتكملة: 56.
(71) ديوان ابن الأبار: 396.
(72) هو صالح بن يزيد بن صالح بن موسى بن علي بن شريف النَّفْزِي، من أهل مدينة رُنْدة وتوفى بها 684هـ، ينظر: نفح الطيب وأزهار الرياض مواضع متفرقة، وللدكتور محمد رضوان الداية كتاب بعنوان: أبو البقاء الرندي شاعر رثاء الأندلس، منشورات مكتبة سعد الدين، بيروت.

وأين حمصٌ وما تحويه من نُزَهٍ ونهرها العذب فيَّاضٌ وملآن
قواعد كنّ أركان البلاد فما عَسَى البقاءُ إذا لم تبق أركان[73]

وفي رسالة بعث بها ابن عميرة إلى ابن الأبار يعدد فيها المدائن التي سقطت بعد سقوط بلنسية ومنها قوله: «وهي بلنسية» دار الحسن والبهجة والرَّونق» ثم يشير إلى سقوط مدينة شقر بعد بلنسية فقال: «ثم زحفت الكفر بزرقها وشقرها[74] حتى أحاطت بجزيرة شقرها» وينتقل الحال إلى شاطبة فيقول ابن عميرة: «أما شاطبة فكانت من قصبتها شوساء الطرف»[75] ولكن الكافر «كشط[76] عنها إزارها، فاستحلَّ الحرمة أو تأوَّلها» ثم ينتقل الخراب والتدمير إلى مدينة تدمير فيقول: «وأما تدمير فجاد عودها على الهصر[77]، وأمكنت عدوّها من القصر» وتتوالى النكوب على باقي الممالك، فيختم الكاتب رسالته بقوله: «وما وراءها من الأصقاع التي باض الكفر فيها وفرَّخ»[78].

وفي رسالة جوابيّة بعث بها ابن الأبار إلى ابن عميرة يستهل فيها حديثه عن ممالك الأندلس الهالكة بعد هلاك بلنسية فيقول: «أين بلنسية ومغانيها...؟» وبعدها ينتقل داؤها العضال إلى ما جاورها حيث قال: «ثم لم يلبث داء عقرها أنْ دبَّ إلى جزيرة شقرها فأمرَّ عذبها النمير» ومن بعد شقر يأتي الدور على دانية فيقول: «ومع ذلك اقتحمت من الأيام دانية، فترحت قطوفها وهي دانية» ومنها إلى شاطبة حيث قال: «ويا لشاطبة وبطحائها من حيف الأيام وإنحائها» وبعد هذه المدائن يأتي الدور على العديد من المماليك الأخرى يبدو

(73) نفح الطيب: 4/ 487، ومرسية وشاطبة، وجيان، وقرطبة، وحمص وهي إشبيلية كلها مدائن بالأندلس.
(74) الزرق: الرماح، والشقر: الخيل هذا ما يريد الشاعر أن يعبر عنه.
(75) يقال شاس فلان شوساً، إذا نظر بمؤخر عينيه تكبُّراً، ،هو أشوس، وهي شوساء، المعجم الوسيط: 1/ 499.
(76) كشط الإزار: أزاله، المعجم الوسيط: 2/ 788.
(77) الهصر: الكسر، المعجم الوسيط: 2/ 987.
(78) راجع الاقتباسات في نفح الطيب: 4/ 490 وما بعدها.

ذلك في قوله: «والهفاه ثم لهفاه على تدمير وتلاعها، وجيان وقلاعها، وقرطبة ونواديها، وحمص ووواديها. . . ، وتلك إلبيرة بصدد البوار، وريَّة في مثل حلقة السِّوار، ولا مريَّة في المرِّية وخفضها على الجوار»[79] ويختصر الشاعر ذلك كله في العبارة التالية التي تجسِّد العلاقة بين هلاك أم المدائن، وبناتها اللائي لحقن بها دون تباطؤ حيث قال: «إلى بنيات لواحق بالأمهات، ونواطق بهاك لأول هاتف بهات»[80] ويبدو مِمَّا شخَّصه ابن الأبار أن مدائن الأندلس بعد سقوط بلنسية لم تعد قادرة على رفض مطالب العدو، فإذا قال هاتِ، أجابت من فورها بقولها خذ، ولا يبتغي العدو منها إلاَّ الانقياد والاستسلام، وتخريس صوت الإسلام.

وكما تعود دارسو الأدب الأندلسي بأن يروا أفانين الموشحات تتغَنَّى بها الجاليات العذارى بين الجلاّس ومحتسي كؤوس الراح، لأنها لا تنفع إلاَّ لمثل هذه المواضع، فهي فنٌّ غنائي جُعِلَ للتطريب والتنغيم، ولكن عندما اشتد الكرب، وأقبلت رياح الشمال على مدائن الأندلس تدكُّ الحصون، وتذكي نار الشجون في قلوب الأندلسيين تجاوب الوشاحون مع هذا الهمِّ الطارق فنظموا موشحات في رثاء أبطالهم الذين سقطوا في معارك الجهاد، ومن ذلك موشحة نظمها ابن حزمون[81] في رثاء أحد قادة الفرسان في بلنسية الذي استشهد في إحدى المعارك ضد النصارى، نقتطف منها البيت الذي يذكر فيه الوشاح الكوارث التي ستحل ببلنسية بعد مقتل المدافعين عنها حيث قال:

عهدي بتلك الجهاتْ ... أبى الهوى أنْ أُحْصِيَهْ
يا حادي الركْب هاتْ ... حدِّث لنا بِمُرْسِيَهْ
أوْدَى أبو الحملاتْ ... يا ويحها بَلَنْسِيَهْ

(79) راجع الاقتباسات في نفح الطيب: 4/ 497 ـ 498.
(80) فتح الطيب: 14/ 498.
(81) هو أبو الحسن علي بن حزمون، وشاح أندلسي مشهور، ينظر ترجمته في المغرب، 2/ 214، ونفح الطيب: 3/ 465.

فـــي طـــاعـــةِ الله مـــاتْ حـاشـا لـه أن يَـعْـصِـيَـه[82]

دروس وعبر

من خلال عرض هذه الصور التي تحكي قصة مدينة سطع نجمها في ديار الغرب الإسلامي حيناً من الزمن حاولنا أن نستذكر الماضي ونستنبط الدروس والعبر، وفيما استعرضناه يبدو أن الأندلسيين استعدوا للسقوط والانحدار عندما بلغوا أعلى درجات الكمال في الرقي الحضاري، وربما كان شعارهم في ذلك قوله أحد شعرائهم:

لـكـلّ شـيءٍ إذا مـا تَـمَّ نـقـصـان فهل يُسَرُّ بطيب العيش إنسان[83]

أو ما كان يكتبونه على جُدُر بيوتهم وهي عبارة «لا غالب إلا الله» وهذه التعابير لها دلالات بعيدة الغور أقربها إلى العقل ما يؤكد أن القوم قد وصلوا إلى درجات متدنية من الإحباط النفسي يعود في الأساس إلى اشتعال نيران الفتنة بينهم، والاستكانة إلى حياة الدعة واللهو والمجون متناسين أنّ خيول عدوّهم تستشرف مدائنهم صباح مساء استعداداً للوثوب، ونتوصل إلى هذا الاستنتاج من خلال موروثهم الثقافي الذي شخّص لنا الصورة بكل أبعادها، ويبدو ذلك واضحاً فيما ذكرته لنا بعض الأشعار والأخبار، وهي أنَّ أهل بلنسية قد انصرفوا إلى حياة اللهو والخلاعة في إحدى مراحل حياتهم، فكانوا عرضة للامتهان عندما كانوا يستعدون للقتال في ثياب من حرير، وعدوّهم استنفر الأجناد في لباس من حديد، وفي هذا المعنى يقول أبو إسحاق بن مُعَلَّى[84].

لبسوا الحديد إلى الوغى ولبستم حُـلَـلَ الـحـريـر عـلـيـكـم ألـوانـا
مـا كـان أقـبـحـهـم وأحـسـنـكـم بـهـا لـو لـم يـكـن بـبـطـرنـه مـا كـانـا[85]

(82) المغرب: 2/ 218.

(83) نفح الطيب: 4/ 487.

(84) هو أبو إسحاق إبراهيم بن مُعَلَّى الطرسوني نسبة إلى طرسونة إحدى مدن الثغر الأعلى، ينظر: الذخيرة: 3/ 2/ 240، والمغرب: 2/ 457.

(85) بطرنة قرية قريبة من بلنسية دارت فيها معركة بين المسلمين والنصارى، وكانت الغلبة =

ويتحدث أحد الجغرافيين الأندلسيين عن أهل بلنسية فيذكر أن أهلها اختاروا لأنفسهم أسباب الراحات، وبخاصة فيما يتعلق بالطرب والغناء، واقتناء الجواري المغنيات بأغلى الأثمان حيث قال: «ولا تكاد تجد فيها «أي بلنسية» من يستطيع على شيء من دنياه إلاّ وقد اتّخذ عند نفسه مغنية وأكثر من ذلك، وإنّما يتفاخر أهلها بكثرة الأغاني، يقولون عند فلان عودين، وثلاثة وأربعة وأكثر من ذلك، وقد أُخْبِرْتُ أن مغنية بلغت في بلنسية أكثر من ألف مثقال طيبة، وأما دون الألف فكثيرات»[86].

وتزداد المواقف تبايناً عندما يتقلب المحبُّ الولهان بين ساخرٍ أو شمتان، ويدعو بالويل والثبور على منازل كانت تحاكي الشموس والبدور، ومن هؤلاء ابن عميرة المخزومي الذي اشطاط غضباً عندما تساقطت مدائن شرق الأندلس في أيدي الأعداء، ويرى أن تلك المدائن قد تخلّت عن دين التوحيد، وأقبلت راغبة في دين التثليث فيذمها، ويدعو عليها بالهلاك فيقول:

ألا لا سقت غُرُّ الغوادي منازلاً طعمن جناها وارتعينا جنابها[87]
ومالي أستسقي الغمام لتربةٍ أغصَّت بحيَّات الصليب لصابها
وشرَّدت التوحيد تشريد ساخرٍ به وعلى التثليث أرخت حجابها
وكنا صدقناها المحبة جهدنا فماذا الذي منا مع الحبِّ رابها[88]

وفي أبيات أخرى يشبه بلنسية بالحسناء التي تخلّت عن خلّها الوفي، وانقادت لعدوٍّ ماكر فيقول:

= لغير المسلمين، ينظر: فتح الطيب: 1/ 143، 4/ 448، والمغرب: 2/ 355، والبيتان في نفح الطيب: 4/ 448.

(86) تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس: 86.

(87) أغضَّ: امتلأ، المعجم الوسيط: 2/ 654، واللصاب مفردها لصبٌ وهو مضيق في الجبل أو الواديُ المعجم الوسيط: 2/ 824.

(88) أبو المطرف بن عميرة حياته وآثاره: 233، نقلاً عن مخطوط الأسكوريال رقم 520 ورقة 78، ينظر المرجع نفسه: 233 هامش: 1.

حسناء طاعتها استقامت بعدنا لعدوّنا أفيستقيم لها الهوى[89]

وبالرغم من ذلك فإنَّ الشاعر لا ينكر حبّه لوطنه الذي أخرج منه عنوةً ولكنَّ العدو هو الذي حال بينه وبين العودة إليه وطلب السقيا لأجله، وهذا تعليل ربما يكون في محله، وهو الذي جعل صاحب النفح يعلق على هذه الأبيات بقوله: «وما رأيت ولا سمعت مثل هذا الأبيات في معناها، العالية في مبناها»[90] ومن هذه الأبيات قول الشاعر:

زدنا على النائين عن أوطانهم وإن اشتركنا في الصبابة والجوى
إنَّا وجدناهم قد استسقوا لها مع بعد أنْ شطَّت بهم عنها النوى
ويصدنا عن ذاك في أوطاننا مع حبِّها الشِّرك الذي فيها ثوى[91]

وابن عميرة في هذه الأبيات يوازن بين حاله، وحال من شطَّت به النوى عن داره، والجامع بينهما هو الصبابة والجوى إلاَّ أنَّ النائين لا يمنعهم مانع من الدعاء بالسُّقيا لأوطانهم، وأمَّا الشاعر فإنه يتمنَّى أن يحلَّ الهلاك والدمار بالديار، وبمن سكن بها من بعده، وهكذا رسمت لنا الأبيات ألواناً من الأحاسيس والمشاعر التي عصفت بها إِحَنُ الزمان في قلب الشاعر، وفي الختام أقول: إنَّنا إذا حاولنا إسقاط الماضي على الحاضر للاستئناس بعبره ودروسه نجد التوافق بين الحالين. ولعل في قولهم: ما أشبه اللّيلة بالبارحة خير معبِّر عن ذلك، ولا فرق عندي بين مدائن الشرق والغرب بالرغم من اختلاف الزمان والمكان.

(89) نفح الطيب: 1/310.
(90) المصدر نفسه: 1/310.
(91) المصدر نفسه: 1/310.